القضية الفلسطينية
في فكر الأستاذ ميشيل عفلق

جبرا إبراهيم جبرا

فلسطين

غانم محمد صالح

العراق



منشورات الطليعة

تونس

2002



دراسات في فكر الأستاذ ميشيل عفلق

القضيـــة الفلسطينيـــة
في فكر الأستاذ ميشيل عفلق

محاضرات مختارة من الندوة القومية
حول فكر الأستـــاذ ميشيـــل عفلـــق
بغـــداد 26/23 حزيـران 1990





القضية الفلسطينية في فكر الاستاذ ميشيل عفلق

(قراءة نصية في كتاباته)

* جبرا ابراهيم جبرا

« فلسطين اصبحت الارض العربية كلها ، والشعب العربي كله . فحيث ينبض عرق للعروبة ، توجد فلسطين بكل معاناتها وبكل آمالها في التحرير »(**) .

اذا استثنينا الفلسطينيين انفسهم ، لا احسب ان عربياً في المشرق او المغرب تحدث عن فلسطين بحماسة وحب ، وادراك ودقة ، كما تحدث الاستاذ ميشيل عفلق طوال مايقارب خمسين سنة من التنظير الفكري والنضال السياسي ، وعلى كثرة ما كتب في هذه المدة المشحونة بالرأي والقلق والكفاح ، لا أظن اننا نجد مقالًا او خطاباً مما كتب يخلو من ذكر صريح لفلسطين ، او اشارة ضمنية لها ، حتى ليشعر المرء ، وهو يتابع كتاباته المستمرة في دفقها وحيويتها ، ان الموضوع الفلسطيني ينبوع جوهري من ينابيع فكره ، وان ايمانه بانبعاث الامة العربية انما يزداد رسوخاً كلما نظر الى القضية الفلسطينية ، وتأمل في مساراتها المأساوية والبطولية جميعاً .

وحين يعود المرء الى كتابات الاستاذ ميشيل عفلق منذ بداياتها ، وينظر اليها في تسلسلها الزمني ، يدهش لتماسكها المنطقي وانسجامها معا في نظامه الفكري المتنامي بسرعة . فهو يتمتع برؤية عميقة وواضحة منذ بدء نشاطه السياسي ، وتأتيه هذه الرؤية كل يوم بالمزيد من العمق والوضوح ، وتأتيه في الوقت نفسه بالمزيد من التاكيد على ما يبدو وكأنه رآه مرة في شبابه كوهج هائل وما عليه ، مع الزمن ، الا المثابرة على تفصيله ، والاصرار عليه منهجاً في سبيل بعث الامة العربية .

ولأن ثورته الفكرية جاءته ، زمنياً ، ليس في عز الكفاح العربي ضد الاستعمار

---

* اديب فلسطيني

(**) النصوص المقتبسة من كتابات الاستاذ ميشيل عفلق في هذه الورقة استقيناها كلها من كتاب «في سبيل البعث : الكتابات السياسية الكاملة» باجزائه الخمسة .



الفرنسي في سورية فقط، بل ايضاً في عز الكفاح ضد الاستعمار البريطاني في فلسطين، فقد باتت فلسطين هماً اساسياً من هموم رؤيته السياسية سنة بعد سنة، منذ اواسط الثلاثينات، ليتبلور في موقف في الاربعينات نجده اليوم تنبؤياً بما ستلقى فلسطين ليس من الصهيونية فقط، بل من الولايات المتحدة بالذات، حين كتب، في ١٠ آب ١٩٤٤، والحرب العالمية الثانيةلم تنته بعد، الى المعتمد السياسي الامريكي في دمشق، مايلي:

« ان القرار الذي اتخذه الحزب الديمقراطي الامريكي مؤخراً بشأن فتح فلسطين للهجرة اليهودية وجعلها وطناً قومياً لليهود، والذي جاء على اثر قرار بنفس المعنى للحزب الجمهوري، يعتبره العرب تعدياً فاحشاً من قبل الدولة الامريكية على حقوقهم لا يقل في شيء عن التعدي البريطاني في وعد بلفور المشؤوم، ويرون فيه حائلًا دون أي تفاهم وصداقة بين تلك الدولة وبينهم.

لقد وقفت الامة العربية في هذه الحرب، بالرغم من التجارب الاليمة التي عانتها طوال ربع قرن مع ظلم الاستعمار الاوروبي وخداع السياسة الاوربية، من قضية الحلفاء موقف عطف واستبشار، مؤملة ان تكون تلك التجارب نفسها قد اوصلت العالم الغربي الى الاقتناع بفشل مبدأ السياسة الاستعمارية من أساسها. وكان معظم أملها معلقاً في هذه المرة على دخول عنصر جديد على السياسة الاوروبية، نعني المبادىء التي كانت امريكا قد اعلنتها في الماضي، ودخلت الحرب الحاضرة على اساسها وفي سبيل تحقيقها.

ولكن موقف الاحزاب الامريكية الاخير من قضية فلسطين قد قضى نهائياً على هذه الآمال واظهر للعالم اجمع وللعرب بصورة خاصة ان السياسة القديمة هي التي لاتزال سائدة، وان المبادىء العادلة والمثل العليا لم تزل في نظر الدول الغربية، سواء في القارة الاوروبية ام في امريكا، اداة تسخّر لنيل مآرب ومنافع بعيدة عن تلك المبادىء والمثل كل البعد.(١)

ما أشبه الليلة بالبارحة!

ولسوف نرى ان تحديد الاستاذ ميشيل عفلق للقضية الفلسطينية يقع دائماً ضمن مقومات فلسفة حزب إلبعث الاساسية، مهما تطورت الاحداث، فهو دائماً يراها من تلك الزاوية الاساسية التي منها يجب ان نرى قضايا الامة العربية كلها، والتي جعلها الاقنوم الاول في شعار الحزب: الوحدة. والوحدة، في تفكيره، هي الوحدة السياسية، التي يكون اساسها الوحدة الروحية، وهذه الوحدة الروحية يحس بأن فقدانها في مطلع القرن «يجب ان ينصب عليه التفكير لاعادة الوحدة القومية والسياسية»(٢)، ويرى ان الوحدة العربية هي «نتيجة للانقلاب الروحي في المجتمع



العربي» ، بحيث لايجوز لنا ، ولن ينفعنا ، ان نجعل مقتربنا من احوال الاقطار العربية مقترباً تجزيئياً ، وعلينا ان نرفض كلام القائلين : لِنَسْعَ اولا الى اصلاح حال كل قطر ، وبعد ان تصلح احوال هذه الاقطار عندها تجتمع .. لأن القطر الواحد ـ الجزء ـ اذا لم يعرف منذ البدء بأنه جزء فقط ، وبالتالي بأنه ناقص .. فانه لاتستقيم حياته ولاتستقيم نظرته الى الحياة اذا لم يتصور نفسه حلقة في سلسلة ، وجزءاً من كل ، وعضواً في جسم كامل ..»

ويؤدي به الربط بين الوحدة الروحية والوحدة السياسية ، الى الربط بينهما وبين وحدة النضال ، مشرقاً ومغرباً معاً . «الوحدة العربية هي قبل كل شيء نضال ووحدة في النضال» ، و«الوحدة السياسية هي التي تتم في النضال ، لأن النضال هو الحياة الصحيحة للعرب ، ككل امة فقدت قياد نفسها في الماضي وتأخرت ، وتريد ان تستأنف سيرها ، تريد ان تنهض . الحالة السليمة التي تعبر عن حقيقة الامة هي النضال . خذوا العرب بدون نضال ، تروهم بين الشعوب المتأخرة ، وخذوهم في حال النضال : هم في مستوى أرقى الامم .»[٣]

وفلسطين لن يراها مؤسس البعث الا في هذا السياق الاساسي ، فهو بعد اعلان تقسيم فلسطين ، وبدء القتال الذي نشب في اواخر نيسان من عام ١٩٤٨ بين العرب والكيان الصهيوني ، كتب يقول ، وهو في جنين بفلسطين مع مجموعات من المتطوعين البعثيين ، مؤكداً ان الشعب العربي ، ككل لا الحكومات المجزأة ، كفيل بانجاح نضاله :

«ان الدروس القاسية التي القتها الحوادث علينا في الاسبوعين الاخيرين لجديرة بأن تقنع رجال الحكومات العربية بأن سياستهم معكوسة فاشلة ، وان افضل سياسة يتبعونها في هذا الوقت هي ان يكفوا عن كل سياسة ويضعوا قضية فلسطين بين ايدي المقاتلين بعد ان يجهزوهم بكل ما تقتضيه حرب حديثة جدية قاسية .

لقد كان مفروضاً ان تكون معركة فلسطين منذ البدء معركة العرب جميعاً . لان مصيرهم مرتبط بمصيرها . ولكن السياسة المعكوسة عملت على خنق وتبديد امكانيات الشعب العربي بشتى السبل . وادت الى ان عرب فلسطين انفسهم ظلوا بأكثريتهم الساحقة بعيدين عن المعركة وعبئاً عليها ، لا يجدون الى اداء واجبهم سبيلا .»[٤]

وقبل ذلك بثلاثة أشهر كان قد اعلن بوضوح ان :

« العمل الايجابي في سبيل كل قضية قومية ، وفي سبيل قضية فلسطين بوجه خاص ، ليس امراً يفرضه الواجب القومي فحسب ، بل هو من منطق الفكرة الانقلابية التي يؤمن بها الجيل العربي الجديد ، والتي تدعوه ان يشق طريقه بين تخاذل الحكومات وتآمر المصالح الاستعمارية والاقطاعية على مصير الشعب العربي ، لكي



يقود هذا الشعب ويتيح له ان يقبض على قضيته بيديه ، وينقذها من نتائج التآمر والفوضى والاستغلال . وبدلًا من ان يحسب الجيل الجديد ان اقدامه على الجهاد في سبيل قضية فلسطين يوقعه في شراك الفئات الحاكمة المشرفة على هذه القضية ، ويشجعها على التضليل والاستغلال ، يجب ان ينظر الى نضاله الايجابي كخير وسيلة لانتزاع الاشراف من يدها ، ووقف محاذيره او التخفيف من شروره . »[٥]

ولسوف نرى ان الاستاذ ميشيل عفلق ، على مر السنين ، ولاسيما بعد تأسيس منظمة التحرير ثم اندلاع الكفاح الفلسطيني المسلح في مطلع عام ١٩٦٥ ، يبقى على رأيه الشعبي الوحدوي هذا في التعامل مع القضية . بل انه لا يدع فرصة تمر ، طوال نضاله السياسي الشاق ، الا ويؤكد فيها هذا الموقف ، مضيفاً اليه نقطة تزداد تجلياً مع استمرار الكفاح ، وهي ان القضية الفلسطينية ليست قضية الثورة فحسب ، بل قضية العصر ، واحدى قضايا الانسانية التي من خلالها فقط نستطيع فهم دور الامة العربية في انبعاثها ازاء العالم كله . ففي عام ١٩٧٩ ، نجده يقول :
« ان القضية الفلسطينية هي قضية العصر وقضية الثورة وهي معيار الثورية في حزبنا .. وعندما تتحرر فلسطين لن يبقى استعمار على وجه الارض . هذا من جهة دليل على صعوبة القضية ، ولكونها قضية انسانية وليست قضية العرب وحدهم ، ولذلك فان الشعوب الثائرة والمنتصرة للحق والعدل والتقدم عندما تتضامن كلها في دعم الثورة والقضية الفلسطينية سيكون ذلك في نفس الوقت تحرراً لهذا الشعوب والانسانية . »[٦]

وكان الاستاذ ميشيل عفلق قد قال ، عام ١٩٧٦ :
« ان في قضية فلسطين ما يلخص وضعنا في هذا العصر وفي هذا العالم ، ان التآمر الاستعماري الصهيوني على فلسطين هو في حقيقته تآمر على النهضة العربية كلها ، اذ لم يعرف التاريخ ان تجمعت قوى شريرة بمثل هذه الوسائل الخبيثة الفتاكة لكي تخنق نهضة امة وتحول دون وحدتها مثلما وقع للامة العربية في فلسطين ، فاذن ، نحن عندما نكاد ننسى آفاقنا الحضارية ، وابعادها الانسانية ، يأتي الاعداء ليذكرونا بها بتآمرهم ، بمكائدهم ، ولكنهم يسيرون ضد تيار التاريخ ونحن نمشي في اتجاه حركة التاريخ ، وحركة المستقبل ، وهكذا نرى ان قضية فلسطين تكاد تصبح قضية العالم ، قضية الانسانية ، قضية العصر . »[٧]

ثم يستمر ليقول : ان الثورة الفلسطينية « هي حدث تاريخي في حياة امتنا في هذا العصر . انها وضعت المستوى الذي يتوجب على العرب بلوغه ، والارتقاء اليه في نضالهم ، وفي تفكيرهم ، لكي يخلقوا نهضة ايجابية معطاء . الثورة الفلسطينية



بوضعها الكفاح المسلح والعمل الفدائي طريقاً للثورة العربية ، اعطت الجواب على متطلبات المرحلة الجديدة من مراحل نهضتنا » .

وقد اكد هذا كله اهمية ان تُرى قضية الثورة العربية نفسها في سياق الحضارة الانسانية اليوم ، ومساهمة الامة فيها كصاحبة رسالة خالدة ، واهمية ان ترى القضية الفلسطينية في سياق هذه الحضارة الانسانية بالذات . وعلى كثرة الاشارات الى هذه الناحية ، في كتاباته ، فان بعض ما قاله في كلمته في السابع من نيسان عام ١٩٨٣ (لمناسبة الذكرى السادسة والثلاثين لتأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي) ، يلخص الامر في فقرتين من اروع واعمق ما كتب :

« ان بقاء قضية فلسطين مطروحة بكل ثوريتها وكامل حقها في ازالة الاغتصاب واسترجاع الارض انما هو تعبير عن ارادة الثورة في الامة العربية واجيالها الصاعدة وجماهيرها المحرومة المناضلة ، كما هو بعث للثورة في كل ارض عربية وجواب على المتقاعسين عن معركة فلسطين . ان كل مواطن عربي واع ، يدرك ويؤمن بأن استرداد حريته وكرامته ذو صلة وثيقة بقضية فلسطين ، وبمعركة تحريرها ، كما يدرك ان الذين يسجنون الشعب ويمارسون القمع والقهر ضد المواطنين ، ويكرهون الحرية ويحقدون على الاحرار ، هم الذين يستعجلون تصفية القضية الفلسطينية ، بأي شكل كان وبأي ثمن .

ان قضية فلسطين ، كما عرفها الحزب ، هي خلاصة للقضية العربية ، وهي روح الثورة العربية وقضية الامة المركزية . هي نافذة الامة العربية على العالم والانسانية ، هي رسالة العرب الى العالم ، رسالة القيم الخالدة ، قيم الحق والعدل والاخاء والكرامة الانسانية . هي الانتماء العربي الانساني الحديث من خلال الالم والمعاناة والثورة والنضال والحرية والتحرر بأعمق معانيها ، هي الحق يولّد القوة ، هي العروبة مختصرة ، مطهرة ، هي الانسانية معذَّبة معزَّية ، هي وحدة العرب وحريتهم ونهضتهم . »(٨)

ونحن اذ نقرأ هذا ، نتذكر دائماً التوحيد الجوهري ، الذي أصر عليه القائد المؤسس منذ البدايات ، بين القومية والانسانية . فبقدر ما تحدث عن الوحدة والثورة والتراث والحرية في سياقات كتاباته السياسية المتواترة ، نجده لا يغفل عن ناحية يعدها في الاساس من فكره ، وتفسر التماسك العقلاني في موقفه البعثي : وهي ان القومية ترفض العنصرية والتعصب لانها انسانية بدءاً ومنتهى ، ومنها ينبثق الفهم الصحيح للنضال من أجل الامة ، وبالتالي من اجل فلسطين نفسها . فيكون بذلك النضال الفلسطيني جزءاً من النضال من أجل الانسانية جمعاء . فيقول ، عام ١٩٥٦ :



«ليس مستغرباً ، ولا من قبل المصادفة ، ان تتضح صلتنا بالانسانية ، وتقوى في الوقت نفسه الذي تتضح فيه مقومات وحدتنا العربية ويقوى اندفاعنا في طريق تحقيقها . فنحن كلما اقتربنا من انفسنا زاد قربنا من الانسانية ، وكلما اطمأننا على شخصيتنا ازدادت هذه الشخصية انفتاحاً على الآخرين . وان تجربتنا العميقة القاسية لحاضرنا تؤهلنا لان نفيد من تجارب تاريخنا ، ومن تجارب التاريخ كله ، ولان نتحاشى الاخطاء والانحرافات في ماضينا وماضي الامم الاخرى ، فنربط ربطاً مبدئياً حيا بين قوميتنا وانسانيتنا ولا نسمح بأي انقطاع او مسافة بينهما ، لانه لن تصل القومية الى الانسانية اذا اعتبرت بدئياً منفصلة عنها او مرحلة لها : فالانسانية هي القومية لاقبلها ولا بعدها ، وليس ثمة قومية وانسانية ، بل قومية انسانية ، وهي الصحيحة ، وقومية منحرفة مشوهة لأنها منفصلة عن الانسانية . وكل ما ظهر في تاريخ القوميات من تعصب واتجاه نحو الاغتصاب والاستعمار مرده الى انه سُلِّم فيها بالبدء بانفصال القومية عن الانسانية ، او بامكان البدء بالقومية وانمائها للوصول في مرحلة اخرى الى الانسانية .. »[٩]

لعل احد اسباب القوة في فلسفة الاستاذ ميشيل عفلق البعثية ايمانه العميق بالطاقة النبيلة الهائلة التي تكتنزها فكرة القومية العربية التي هي في الصميم المشع من كل موقف سياسي او نضالي يتخذه من قضايا العصر ، بما فيها القضية الفلسطينية . وقد تحدث عن ايمانه هذا في اكثر من مكان ومناسبة ، ونجده في بداياته في كتاباته المبكرة ، الى ان يتحدد في مقال مهم له يعود الى العام ١٩٤٠ ، بعنوان «القومية حب قبل كل شيء» ، يرى فيه ان :

«القومية التي ننادي بها هي حب قبل كل شيء . هي نفس العاطفة التي تربط الفرد بأهل بيته ، لان الوطن بيت كبير والامة اسرة واسعة . والقومية ككل حب ، تفعم القلب فرحاً وتشيع الامل في جوانب النفس ، ويود من يشعر بها لو ان الناس يشاركونه في الغبطة التي تسمو فوق انانيته الضيقة وتقربه من افق الخير والكمال ، وهي لذلك غريبة عن ارادة الشر وابعد ما تكون عن البغضاء . اذ ان الذي يشعر بقدسيتها ينقاد في الوقت نفسه الى تقديسها عند سائر الشعوب فتكون هكذا خير طريق الى الانسانية الصحيحة .. وكما ان الحب لا يوجد الا مقروناً بالتضحية فكذلك القومية ، والتضحية في سبيلها تقود الى البطولة . اذ ان الذي يضحي من اجل امته ، دفاعاً عن مجدها الغابر وسعادة مستقبلها ، لأرفع نفساً واخصب حياة من الذي يحصر تضحيته في شخص واحد . »[١٠]

وانطلاقاً من هذه النظرة القومية يتفاعل مؤسس البعث في اول القتال الناشب بين العرب والصهيونية في ايار ١٩٤٨ ، اذ يرى ان فلسطين جمعت الشعب العربي



كله في محاولة النهوض بقوميته حين هب لمقارعة العدو الصهيوني . وقد اوضح منذ ذلك اليوم ان هذه «المعركة المرتجلة» يمكن تحويلها الى «حرب نظامية تتحقق فيها عناصر الوعي والتنظيم» التي ستوجه الامة نحو وحدتها واطلاق «مؤهلاتها العظيمة للتحرر والابداع» ، على ان لا نقنع بمجرد التكافؤ مع هذا العدو :

« .. اذ يجوز كل شيء الا ان تتعادل الامة العربية مع عصابات الصهاينة . اذن فأول ما ينبغي عمله هو ان تصبح القوات العربية المحاربة ، في عددها ومعداتها ، اصدق مايكون تعبيراً عن امكانيات الاقطار العربية ، وان تشجع بصورة خاصة امكانيات عرب فلسطين ويستفاد منها الى أبعد حد ممكن . لأن الغاية من اشتراك الاقطار العربية لم تكن تعطيل هذه القوى بل دعمها وتأييدها .

ومما لايقل عن ذلك اهمية هو ان تصبح معركة فلسطين اصدق ما يكون تعبيراً عن روح النهضة العربية الحديثة . فالمجال واسع امامنا لكي نجعل من هذه المعركة المرتجلة حرباً نظامية تتحقق فيها عناصر الوعي والتنظيم المتفتحة في افراد شعبنا . ويمسك زمام التوجيه الشامل فيها جميع الذين يمثلون الايمان بوحدة الامة العربية وبمؤهلاتها العظيمة للتحرر والابداع مادامت معركة فلسطين معركة العروبة الفتية الناهضة . »[١١]

ونحن هنا لانتابع تطورات الصراع العربي مع الصهيونية بعد ذلك التاريخ ، بقدر ما يهمنا ان نلاحظ نفاذ رؤية الاستاذ ميشيل عفلق الى الصميم من معنى هذا الصراع ، وهو يرفع صوته باستمرار من موقعه الفكري الذي بقي سنيناً طويلة خارج موقع السلطة والتنفيذ الى ان قامت ثورة ١٧-٣٠ تموز المجيدة (١٩٦٨) في العراق . ونجد انه يبقى على تشبثه المنطقي الذي باتت الاحداث بعد ذلك تتعاقب لتشير كل مرة الى عمق فكره في كل مايتعلق بمصير فلسطين ومصير الامة العربية معاً .. فيقول في جملة ما يقول ، على اثر العدوان الثلاثي على مصر ، في اواخر عام ١٩٥٦ :

« فالدول الاستعمارية اقامت (اسرائيل) لكي تحول دون نهضة العرب ، ودون وحدة العرب ، ولكن هذا الفعل نفسه كان عاملًا كبيراً جداً في ايقاظ قوميتنا ورفع مستوى وعينا ونضالنا لكي نصل في النتيجة الى القضاء على (اسرائيل) والاستعمار معاً . ويكفي ان نأتي بمثال مصر ، ولو ان الأمثلة كثيرة ، ولكنه ابرز مثال هذا الذي فعلته معركة فلسطين في نفسية مصر وشعبها ، فكانت معركة فلسطين بالنسبة لمصر بصورة خاصة حدثاً تاريخياً في تاريخ الامة العربية . لأنها قضت على تلك العزلة التي عمل الاجنبي مئة سنة ليقيمها بين مصر وبين الاقطار العربية ، وتحطمت هذه الاسوار العازلة لمصر . واكثر من ذلك بانهيار اسوار العزلة انقشعت الغشاوة عن الشعب في مصر وانتفض من حياة كانت مطبوعة بطابع الفساد والذل والميوعة واتجه في طريق

صاعدة نحو البناء القومي السليم والاصلاح الاجتماعي والتفكير السياسي المتصل بصميم مصلحة الشعب . »[١٢]

واستمراراً بهذا النهج الفكري الاساسي ، يكتب بعد ذلك ببضعة أشهر :

« وجود (اسرائيل) واقع في مرحلتنا القومية الحاضرة ، يجب ان ندخله في حسابنا ، وان نجد له الحل الكامل دون ان نتهرب من بعض المصاعب ، ودون ان نتهيب رؤية العلاقة العميقة التي تصل وجود (اسرائيل) بمشكلاتنا القومية من جميع نواحيها ، أي فيما يتعلق بأسس نظامنا الاقتصادي واتجاهنا الاجتماعي وتربيتنا السياسية ووحدتنا القومية ، وان نرى بوضوح وجرأة ان كل تلكؤ في مواجهة مشاكلنا السياسية ووحدتنا القومية ، بتفكير واسلوب ثوريين انقلابيين ، قد لا يؤخر حل مشكلة (اسرائيل) فحسب ، بل يسمح بتدعيم كيانها الى حد يصعب او يتعذر معه في المستقبل التخلص من هذا الخطر . فاذا عالجنا مشكلة (اسرائيل) على ضوء نظرتنا العربية الانقلابية ، التي ترتبط فيها صورة المجتمع العربي المقبل بصورة العالم او المجتمع الدولي والانساني المقبل الذي يسهم العرب في تحقيقه ، نصل الى النتيجة الآتية : « ان ما يشكل خطراً على الامة العربية هو كيان (اسرائيل) كدولة ، لا وجود اقلية يهودية في الوطن العربي ، وان التعجيل في النضال التحرري والوحدوي وتحقيق خطوات سريعة وجدية في هذين المجالين يقطع الطريق على اطماع الاستعمار في استخدام (اسرائيل) ، واطماع الصهيونية العالمية في استخدام الاستعمار للمحافظة على (اسرائيل) وتوسيعها . »[١٣]

وبعد ذلك بمدة قصيرة عاد الاستاذ ميشيل عفلق ، وكتب المزيد عن الترابط الوثيق بين الاستعمار و(اسرائيل) :-

« فاسرائيل هي ايضاً تعبير عن قوة الصهيونية العالمية التي تستطيع ان تسخر الاستعمار . والاستعمار يسخر (اسرائيل) . ولكن الصهيونية العالمية تستطيع ان تسخر الاستعمار نفسه . فتوصل العرب الى القضاء على الاستعمار يحل اضخم جزء من المشكلة ولكنه لايحلها كلها ، وبالأصح فان التوصل الى القضاء على الاستعمار يشترط حتى يتحقق ان يحسب حساباً لقوى الصهيونية العالمية ، وبالتالي فان نضالاً آخر يجب ان يرافق نضالنا ضد الاستعمار هو نضالنا ضد الصهيونية . »[١٤]

على ان هذا النضال يجب ان يبقى دائماً متسماً بصفته الشعبية الوحدوية التي لا محيد عنها في فكر مؤسس حزب البعث ، مهما كانت مواقف الحكومات العربية وعزائمها في التهيؤ للحرب امام الخطر الصهيوني . ولذا ، بعد نكسة حزيران ١٩٦٧ ، والعمل الفدائي الفلسطيني المنظم في مطالعه ، يقول الاستاذ ميشيل عفلق ، مقيماً الصلة بين تحرير فلسطين وتحرير الوطن العربي كله بقيادة



المؤمنين بفلسفة البعث :

« بدون نظرة جذرية الى اوضاع الشعب لا تكون هناك مقاومة جدية للخطر الصهيوني ، بدون رفع المستوى الاقتصادي ، بدون التوحيد الممكن لبعض الاقطار العربية ، لا يكون للدخول في معركة فعلية مع الصهيونية معنى جدي .

فالخطر الصهيوني ـ فيما اعتقد لن يجد متحمسين ومستعدين لمواجهته مثل هذه الفئة الانقلابية ومثل الجمهور الشعبي الذي يتبعها ، لانه بدأ يدرك معنى الحياة القومية والرابطة القومية . ونحن ـ مع علمنا بأن مشكلة بقاء الصهيونية في فلسطين قد لا تحل هذا العام حتى لو وقعت حرب ، اذ انها تتطلب تحقيق مستوى اعلى من النضال ، من الامكانيات المادية والمعنوية ـ فاننا لن نتأخر عن خوض المعركة ولو كانت بعد اشهر ، فان اعتقادنا راسخ بأن المعركة ان وقعت قريباً او بعيداً فستكون محررة لا لفلسطين وحدها ، بل للوطن العربي كله ، لان الشعب عندما يدخل ساحة النضال لن يكتفي بالقضاء على عدو واحد . »[١٥]

وحين ينبري احدهم ويسأل الاستاذ ميشيل عفلق بعد ذلك بفترة : « ما هو الجواب الذي يجب ان يعطيه العرب على نكسة ٥ حزيران » ، يعود فيؤكد في جوابه أهمية العمل القومي والعمل الجماهيري ، ويقول : « ان الجبهة القومية الشعبية على نطاق الوطن العربي ، والعمل الشعبي المسلح ، هما الركيزة الاساسية لكل استراتيجية في مستوى الرد على العدوان الاستعماري الاخير (حرب حزيران) . فالوحدة والديمقراطية هما شعارا المرحلة الراهنة ... »[١٦]

وهذا كله بالطبع دافع واحد من الدوافع التي جعلت مؤسس البعث لا يؤيد فقط الثورة الفلسطينية ، التي باتت تتصاعد بعد ذلك ، بل اطلق عدة نداءات الى البعثيين يحثهم فيها على الالتحاق باخوانهم ابطال «الثورة الفلسطينية طليعة الثورة العربية» .[١٧]

وبات واضحاً منذ ذلك اليوم ، ان نظرة البعث للقضية الفلسطينية كانت دائماً وبقيت نظرة استراتيجية بالنسبة لقضايا الوطن العربي برمته ، وان الحديث المتواتر عن مركزية فلسطين في حياة الامة العربية ، انما هو التأكيد المتكرر على دورها الاستراتيجي في صراع العرب مع اعدائهم ، مما يجعل الاستاذ ميشيل عفلق عام ١٩٧٤ يرفض اية تسوية مع العدو لاسترجاع أية أرض عربية محتلة مقابل التنازل عن فلسطين للصهيونية ، لان ذلك معناه تفريط بالقضية القومية نفسها :

« ان معركة فلسطين هي جزء من المعركة القومية ، ومسؤولية تحريرها تقع على العرب جميعاً ، لأن المستهدف من قيام (اسرائيل) هي الامة العربية لا القطر الفلسطيني . والمخطط الصهيوني الذي وضع في اوائل هذا القرن لم تقتصر حدوده على



ارض فلسطين فحسب ، بل تعداها الى اجزاء اخرى اضافية من اراضي الوطن العربي .

« عندما تكون قضية فلسطين هي الاصل والاساس ، وهي قضية العرب الاولى ، لا يعود هناك فرق بين ارض فلسطين وبين ارض اي قطر عربي آخر ، الا من ناحية خطر ترسيخ الاستيطان الصهيوني وترسيخ الادعاء التاريخي الباطل للصهيونية بحقها في ارض فلسطين . ويصبح كل تحرير لأرض عربية هو جزء من تحرير فلسطين او مساعد او ممهد لتحرير فلسطين .

ولكن عندما تكون عودة هذه الاراضي الى مصر وسوريا لها ثمن : هو التنازل عن فلسطين للصهيونية ، وعندما تكون عودة هذه الاراضي بداية لانصراف مصر وسوريا عن معركة التحرير ، وعن وحدة المصير ، فيكون بدلا من استخدام هذه العودة ، وهذا الكسب ، لمزيد من الاعداد والتهيئة للجولة المقبلة مع العدو ، عندئذ يظهر التفريط بالقضية القومية ، وينكشف التزييف والاحتيال . وتُجعل قضية فلسطين هي القضية الاخيرة والاقل اهمية ، وليست قضية العرب بل قضية جزء من الشعب الفلسطيني ! (...)

ان اعطاء الاهمية الاولى ، الكبرى للقطر ، للجزء قبل الكل ، يؤدي الى التفريط بالقضية القومية ، ان مجموعة قطريات لا توصل الى الوحدة . ومجموعة مصالح قطرية لا توصل الى المصلحة القومية ! ».[١٨]

وبالتاكيد هذا الموقف المبدئي ، المنبثق من التعامل الاستراتيجي مع القضية الفلسطينية ، في الكثير مما قاله او كتبه مؤسس حزب البعث طوال السبعينات والثمانينات . وقد اقام عام ١٩٧٧ مقارنة مهمة بين فلسطين وبين مناطق عربية اخرى اغتصبها الآخرون ، ملقياً المزيد من الضوء على تميز فلسطين عنها جميعاً في دورها في الصراع العربي مع القوى الاستعمارية بالذات :

« اعتقد ان الفرق بين قضية فلسطين وقضية الاجزاء العربية الاخرى المغتصبة فرق واضح . فاغتصاب فلسطين وزرع الكيان الصهيوني في قلب الوطن العربي لتعطيل النهضة العربية لاشغال العرب وهم في مرحلة نهوض تاريخي ، لاشغالهم بهذا العدو ومنع تحقيق الوحدة العربية ، وفصل القسم الآسيوي من الوطن العربي عن الشطر الافريقي ، كل هذا اعتقد بأنه واضح ولا يحتاج الى شرح طويل لنظهر بأن اغتصاب تركيا للواء الاسكندرون أو ايران لعربستان أو مثل هذه الاجزاء لا يمكن ان يساوي قضية فلسطين التي هي فعلًا قضية مركزية ، والعرب يعيشون هذه الحقيقةمنذ ثلاثين سنة .. اي انهم يجربون هذا الالتحام بين الاستعمار اوالامبريالية وبين الصهيونية ثم التحالف بينهما وبين الرجعية العربية . كل هذا لاينطبق على الاجزاء المغتصبة من الارض العربية في امكنة اخرى ، فقضية فلسطين لم تعد قضية مركزية بالنسبة الى



العرب فحسب وانما اصبح لها حجم دولي وعالمي واصبحت قضية العصر . وفي نظرتنا البعيدة نعتبر بأن الحل النهائي والسليم والمبدئي لقضية فلسطين سيكون في الوقت نفسه انهاء للاستعمار وللصهيونية في العالم كله ، لان استرداد فلسطين واسترداد عروبة فلسطين بكاملها ، هذا معناه ان الامة العربية والقوى التقدمية في العالم التي هي حليفة الامة العربية في هذا الصراع قد رجحت كفتها واستطاعت ان تتغلب على القوى الاستعمارية والصهيونية .

لذلك كثيراً ما نقول بأن تحرير فلسطين هو تحرير للعالم من الاستعمار وان كان هذا يتطلب زمناً ويتطلب نضالًا طويلًا . اما الاجزاء العربية الاخرى ـ الاجزاء المغتصبة ، فهي بشكل آلي تعود الى الارض العربية والى الوطن العربي عندما تحل قضية فلسطين الحل المبدئي القومي الكامل . »[١٩]

وتبعاً لهذا فان أي تصرف بالقضية الفلسطينية ، كالذي قام به السادات مثلًا ، يبقى امراً غير مشروع ، الا اذا تولته جماهير الامة العربية بكاملها . وهذا يعني ما يقوله الاستاذ ميشيل عفلق في ذلك عام ١٩٧٨ :

« ان التصرف بالقضية الفلسطينية أي بالقضية المركزية للامة العربية والتي تتعلق بمصيرها ذاته ، هو من حق هذه الامة وحدها . اي من حق الملايين من جماهيرها الشعبية الكادحة من اقصى الوطن العربي الى اقصاه ، هذه الجماهير الاصيلة المناضلة الوفية لتراث امتها المجيدة ، والحريصة على ان يكون للامة مستقبل عظيم مشرق في مستوى ماضيها العريق . حتى المقاومة الفلسطينية ، التي هي من ابرز عناوين صمود هذه الامة ، واستبسالها في الدفاع عن وجودها ، فانها ليست الا جزءاً من الامة وطلائعها الثورية ولا تملك حق التصرف في قضية ، هي قضية المصير العربي كله . فمن هم الذين يتصرفون اليوم بهذه القضية ، ويقدمون على الصلح مع العدو ، وعلى الاعتراف له بشرعية اغتصابه لفلسطين ؟ وماذا تمثل هذه الانظمة وهؤلاء الحكام ؟ هل يمثلون تراث الامة وعراقتها واصالتها وتمسكها بحقها ؟ هل يمثلون الجماهير الواسعة التي تكدح ، وتزرع الارض وتبني المدن وتحارب ، وتقدم دماءها من أجل أرض الوطن ؟ »[٢٠]

في هذه الاثناء تستمر لديه الاشادة بالمقاومة الفلسطينية والتأكيد على دورها الطليعي في التاريخ العربي الحديث ، وينبني الكثير من الرؤية السياسية عند القائد المؤسس على اهمية وحيوية هذه المقاومة ، سواء فيما يخص الوحدة بين قطر عربي وآخر ، او التحرك الجماهيري على الساحة العربية على امتدادها ، او فيما يخص التعبير عن الوجه الحضاري الحقيقي للامة العربية ، لان «الحضارة لا تنفصل عن الثورة والنضال في سبيل استرداد الحقوق ، ومحاربة الظلم والطغيان في العالم» .



فيقول (عام ١٩٧٩) :

« ان المقاومة الفلسطينية ظاهرة ثمينة مشرفة من ظواهر الثورة العربية المعاصرة ، وتعبير تاريخي عميق وصادق عن جانب اساسي من جوانب هذه الثورة . فمنذ قيام دولة الاغتصاب الصهيوني على ارض فلسطين اصبحت كل معركة تخوضها الجماهير العربية في اية ساحة من ساحات النضال ترتبط بمعركة فلسطين تؤثر فيها وتتأثر بها . ولكن شعب فلسطين الذي لم يهدأ نضاله منذ بداية المشروع الصهيوني الاستعماري ، شق لنفسه بهذا النضال المتواصل دوراً طليعياً في حركة الثورة العربية لا غنى عنه ولا بديل له . وكانت المقاومة الفلسطينية تجسيداً تنظيمياً لهذا النضال الطليعي ، شمل تأثيره الوطن العربي كله ، كما حمل رسالته الى كل احرار العالم . »(٢١)

وهذه المقاومة بالذات هي التي ستمد لبنان بالمزيد من القوة في وجه الغزو الصهيوني عام ١٩٨٢ :

« وها هو لبنان والملحمة الخالدة لصمود بيروت .. بيروت التي احتضنت المقاومة الفلسطينية وحفظت عهد فلسطين قد ارتفعت في نضالها وصمودها الى مستوى قضية فلسطين ، كما ان الثورة الفلسطينية بتفاعلها مع اجواء بيروت الفكرية وروح طبقاتها الشعبية قد اكتسبت ابعاداً جديدة وحيوية جديدة . وقد جاءت معركة بيروت جواباً غير مباشر على المحاولات العقيمة التي مورست عليها زمن التشويه الاستعماري وما بعده ، لكي تتنازل عن عروبتها مقابل الاعتراف لها بلبنانيتها وتقدميتها . »(٢٢)

وبذلك ، في رأي الاستاذ ميشيل عفلق ، تبقى فلسطين ، في نضالها ومقاومتها المستمرة ، هي «طريق الوحدة» ، كما ان الوحدة هي «طريق فلسطين» ، وتبقى كذلك تعبيراً عن روح التحدي ازاء القوى التي تريد ضرب كل محاولة لبناء امة عربية قوية :

« فاذا كان ظهور المقاومة الفلسطينية وثورتها المسلحة قد جاء تعبيراً عن مستوى اكمل واكثر نضجاً من مستوى كل الحركات والثورات التي قام بها شعب فلسطين ، عبر نضاله الطويل ، فانها في الوقت ذاته ، كانت تعبيراً اصيلًا عن روح التحدي وجواباً على النكسة القومية التي خلقت حالة من الضعف والانكسار النفسي مايزال العدو الصهيوني يستغلها منذ الخامس من حزيران ، لضرب كل محاولة لبناء قوة عربية تعيد للامة توازنها وثقتها بالمستقبل . لذلك نظرت الجماهير العربية الى المقاومة الفلسطينية ، كطليعة مقدامة في الثورة العربية ، متوجهة نحو تحرير فلسطين ، وبقيت تتعاطف معها على هذا الاساس ، وتنتظر الى صلابتها في مواجهة التحديات الداخلية والخارجية ، باعتبارها التجسيد لحيوية شعب فلسطين ، وايمانه بحقه ، وثقته بامته ، وهو ينهض بدوره الطليعي في النضال القومي لتحرير بلده .

« فالصمود البطولي للمقاومة الفلسطينية امام شتى المؤامرات والمحاولات المتكررة



لتطويقها ، وتفجيرها من الداخل ، او تشويه جوهرها الثوري ، يبرز المعاني الايجابية لكفاح المقاومة ، بالرغم من كل ما اعترى هذا الكفاح من ثغرات ، وما داخله من ردود فعل على ازمات الواقع ، والنضال العربي .

كما ان صمود الشعب العربي ، في الارض المحتلة ، هو كذلك معيار اساسي ، وضمانة رئيسية لتوجه المقاومة التي تعمل خارج فلسطين ، وفي ظروف صعبة ومعقدة ، ومعرضة للتشويه . لهذا فان الصلة الدائمة بنضال الشعب في الارض المحتلة ، واستلهام ارادة هذا الشعب وقوته وقدرته على الصمود والفداء ، هو الذي يجدد روح الثورة في المقاومة ، كما يعزز الثقة بقدرات الأمة عند الشعب العربي في كل مكان .. »[٢٣]

وقد عني مؤسس البعث في السنوات الاخيرة من حياته بمتابعة دقيقة لصمود منظمة التحرير امام محاولات حافظ اسد وغيره ، شطر المنظمة وتفتيت حركة فتح ، مؤكداً في كل مرة اعجابه بقدرة الشعب الفلسطيني على الحفاظ بوحدته في سياق ايمانه بوحدة الامة ، قائلًا : مثلًا ، في عام ١٩٨٥ : « هذه الحقيقة قد ادركها الشعب العربي الفلسطيني وعبر عنها برفضه لانقسام منظمة التحرير ، وانقسام فتح ، وبتأييده لوحدة المنظمة ، يقيناً منه بأن حالة الوحدة هي دوماً افضل واقوى ... »

ويستمر ليقول : ان الصمود الفلسطيني هذا يعتبر «انتصاراً لارادة الشعب ضد المزيفين ، ورمزاً يضاف الى الرموز الايجابية التي تعبر الامة من خلالها عن مقاومتها للتدهور القائم في واقعها الراهن .(...) فصمود المقاومة نصر لقضية فلسطين ، وهو قوة لابد ان تتحطم على صخرتها الضغوط الامبريالية » .[٢٤]

ويعود فيشدد التأكيد بعد ذلك بسنة على هذه الناحية ، في سياق حديثه عن انتصارات العراق في الحرب التي فرضتها ايران على العراق ، «هذا القطر الناهض ، المعافى ، الذي دفع عن الامة شراً كبيراً ومؤامرة خطيرة استهدفت الاجهاز على قوميتها وشخصيتها وزرع الفتن الطائفية في مجتمعاتها » .

فيقول :

« ان الثورة الفلسطينية ، وعمادها حركة فتح ، انطلقت من ركام الهزائم لتمثل ظاهرة ثورية نضالية في الحياة العربية ، واستطاعت عبر مسيرة شاقة وصعبة ، ان تكتسب شرعيتها من تأييد الجماهير المناضلة في الارض المحتلة ، ومن المعارك التي خاضتها ضد العدو الصهيوني ، ومن صمودها أمام مؤامرات النظام السوري ، الذي سعى ومازال للقضاء عليها ، عسكرياً وسياسياً بقصد تصفيتها وانهاء دورها (....)

... فمادامت الامة قد عبرت عن ارادتها الحرة ، وقدراتها الكامنة ، وايمانها العميق بقيمها الخالدة ، وبجدارتها بالحياة والمستقبل في قطر من اقطارها هو



العراق ، ومن خلال جزء من اجزائها هو شعب العراق ، وكذلك من خلال صمود الشعب العربي الفلسطيني في الاراضي المحتلة ، وتصديه البطولي لقوات الاحتلال الصهيوني ، رغم ضعف وسائله ، وايضاً من خلال حالة الصعود في الوعي القومي التي تعيشها جماهيرنا في مصر العربية ، ورفضها المتزايد والمتجدد لمعاهدة كمب ديفيد ، ونضالها للانعتاق من قيودها ، نقول : مادامت الامة قد عبرت عن كل ذلك ، فتلك هي البداية التي ينبني عليها مشروع قومي كبير للعمل المستقبلي . ان هذا المشروع .. هو الصيغة الوحيدة القادرة على انقاذ الامة .. »[٢٥]

وقد اوضح في خلال ذلك ان الحرب التي دفعت عن العراق ، وعن الامة العربية ، «اخطار النموذج الظلامي المتخلف ، المدمر ، واحدثت ما احدثته في العراق ، من ابداع وتآلف وسمو في الروح والعطاء والفداء والبطولة .» .. ما كانت هذه الحرب لتلهي العراق عن معركة فلسطين ، بل انها ساعدته على ان «يهييء لها التهيئة الصحيحة ، باعداد جيش بحجم الجيش العراقي ، وبهذا المستوى الرفيع من الكفاءة والاقتدار (.....)

ان الحالة الصحية في العراق يجب ان تأخذ دورها في انقاذ الامة من حالة التردي (.....) وهذا لا يتأتى الا بتحرك جماهيري واسع يعكس وقوف الامة العربية ، بقواها الوطنية والقومية كافة ، الى جانب العراق في حربه العادلة ، والا بتحقيق التضامن العربي الحقيقي الفعال ، الذي يفرضه نضال الجماهير العربية على الحكومات ، بعد ان طال تلكؤها ، وثبت تقصيرها .»[٢٦]

هذه الصلة الوثيقة بين الاقتدار العراقي والتحرك الجماهيري الوحدوي والمعركة الفلسطينية المستمرة بقي امرها فاعلًا في فكر الاستاذ ميشيل عفلق حتى نهاية حياته . وقد كان رائعاً ان تندلع ثورة الحجارة في فلسطين قبل وفاته بثمانية عشر شهراً لتؤكد صحة ما ذهب اليه في تفكيره منذ بدايات مسعاه النضالي الطويل في شؤون الامة العربية وعدّه فلسطين قضية مركزية فيها . وجاءت المواقف البطولية للرئيس القائد صدام حسين ، حفظه الله ، بهذا الصدد ، منذ اليوم الاول من نشاطه السياسي حتى تصريحاته الشامخة الاخيرة ، برهاناً ساطعاً على التماسك المنطقي النافذ في آراء القائد المؤسس ، مهما تشعبت ، كما جاءت برهاناً ساطعاً على التوافق العميق بين فكر فارس الامة صدام حسين ، وفكر المناضل الكبير ميشيل عفلق فيما يخص الامة العربية وفيما يخص القضية الفلسطينية في آن معاً .

الهوامـش

(*) ميشيل عفلق / الكتابات السياسية الكاملة - في سبيل البعث - مقال بعنوان روح الامة وروح العصر (ج ٣ - ص ١٠٠) .

(١) المصدر السابق (ج ٤ - ص ١٢٢) .

(٢) المصدر السابق (ج ١ - ص ٢١١) .

(٣) المصدر السابق (ج ١ - ص ٢١٧) .

(٤) المصدر السابق (ج ٢ - ص ٤٢) .

(٥) المصدر السابق (ج ١ - ص ٤٠) .

(٦) المصدر السابق (ج ٥ - ص ٢٥١) .

(٧) المصدر السابق (ج ٥ - ص ٢١٠) .

(٨) المصدر السابق (ج ٣ - ص ٢١٨) « البعث رمز لمعاناة الامة » .

(٩) المصدر السابق (ج ١ - ٢٣٢/٢٣١) .

(١٠) المصدر السابق (ج ١ - ص ١٣٣) .

(١١) المصدر السابق (ج ٢ - ص ٤٣) .

(١٢) المصدر السابق (ج ٢ - ص ١٠٠) .

(١٣) المصدر السابق (ج ١ - ص ٢٤٩) .

(١٤) المصدر السابق (ج ٢ - ص ١٥٤) .

(١٥) المصدر السابق (ج ٢ - ص ٢٥٠) .

(١٦) المصدر السابق (ج ٢ - ص ٢٧١) .

(١٧) المصدر السابق (ج ٢ - ص ٣٦٧ / ٣٧٠) .

(١٨) المصدر السابق (ج ٢ - ص ٣٢٤ - ٣٢٥) .

(١٩) المصدر السابق (ج ٣ - ص ٧٩) .

(٢٠) المصدر السابق (ج ٣ - ص ١٤٦) .

(٢١) المصدر السابق (ج ٣ - ص ١٦٤) .

(٢٢) المصدر السابق (ج ٣ - ص ٢١١) .

(٢٣) المصدر السابق (ج ٣ - ص ٢٣٦) عام ١٩٨٤ .

(٢٤) المصدر السابق (ج ٣ - ص ٢٤٦ - ٢٤٨) .

(٢٥) المصدر السابق (ج ٣ - ص ٢٧٧ / ٢٧٨ / ٢٧٩ / ٢٨٠) .

(٢٦) المصدر السابق (ج ٣ - ص ٢٧٥) .



القضية الفلسطينية في فكر ميشيل عفلق
(خلاصة بحث)

* د. غانم محمد صالح

احتلت القضية الفلسطينية حيزاً مهماً ورئيسياً في فكر الفقيد ونضاله ، ولم يترك جانباً من جوانبها الا وتطرق له ، متناولًا أبعاد المشكلة وحقيقة الصهيونية ، ومحللًا تطورات القضية ، وواضعاً الحلول المناسبة لها . وكان في تحليلاته ذا نظرة قومية شمولية ، حيث انه اعتبر القضية العربية كلها ملخصة في معركة فلسطين وتحريرها من الصهيونية . وكان موقفه هذا موقفاً مبدئياً ثابتاً تؤكده نتاجاته الفكرية سواء تلك التي كتبت في الاربعينات أو التي جاءت في الثمانينات من هذا القرن .

واذا كان هذا هو حال الفقيد المفكر ، فان واقعه النضالي يشير الى انه لم يتوان عن قيادة رفاقه البعثيين والتوجه معهم الى فلسطين ليقاتلوا جميعاً على أرضها بعد أن أدرك ان فلسطين لن تحررها الحكومات ، « فالحكومات العربية » ، كما يقول الفقيد ، « عجزت عن الصمود في وجه الصهيونية العالمية .. وطالما انها حكومات رجعية تمثل مصالح الطبقة المستغلة للشعب فلا تستطيع الاطمئنان اليه أو فسح مجال النضال القومي أمامه » . وعلى هذا فليس لهذه القضية من حل سوى الحل الذي يربطها بالقضية القومية ككل ، وان على الشعب أن لايستسلم لما يخططه له حكامه المرتبطون بالاستعمار ، فيساهم بالنضال المسلح على أوسع نطاق من منطق ان مثل هذا النضال الشعبي تعبير عن حيوية الأمة وشعورها بوحدتها وتحسسها بحقوقها ومصلحتها ويساعد على فضح تآمر الفئات الحاكمة ويعمل على انهيارها واستلام الشعب لقضيته ».

واذا كان تشخيصه للواقع العربي بهذه الدقة ، فان تناوله الواقع الدولي بنفس هذا المستوى ، فألموقف الامريكي من القضية الفلسطينية يظهر للعالم وللعرب ان « السياسة القديمة لا تزال سائدة وان المبادىء العادلة والمثل العليا لم تزل في نظر الدول الغربية .. اداة تسخر لنيل مآرب ومنافع بعيدة عن تلك المُثل التي كانت امريكا

* جامعة بغداد « كلية العلوم السياسية »

قد أعلنتها ودخلت الحرب الثانية على أساسها وفي سبيل تحقيقها كل البعد » .

ثم ان الفقيد يفضح سياسة فتح باب الهجرة اليهودية الى فلسطين ، المناقضة لكل مبادىء الحرية التي تبناها الحلفاء ، والتي تمثل تعدياً صريحاً على حقوق العرب وتدخلًا في شؤونهم الخاصة لا يسيغه أي عرف دولي أو مبدأ انساني بقوله ان الزعامات الامريكية - الاوربية اذا ما ارادت أن تخفف من شقاء اليهود في اوربا وتعالج ذلك انسانياً ، فمن الأجدر بها أن تنظر الى الصهيونية على حقيقتها وتتبين بأنها حركة عدوانية باغية بعيدة عن أن تكون علاجاً لمشكلة اليهود في العالم .. وان عليها ان تزيل هذا الحيف عن العرب ، وتقتنع بأن فلسطين قطر عربي يجب أن ينال استقلاله وحريته ويحكم نفسه بنفسه في اطار المجموعة العربية .

وبعد صدور قرار تقسيم فلسطين واندلاع الحرب العربية الاسرائيلية الأولى ، قدم الراحل الاسلوب الذي يجب أن تواجه القضية به :

فقرار التقسيم يدفعنا الى التصميم على الاستماتة في سبيل تثبيت حقنا .. وان حرية العرب لا تقبل التجزئة .. وان انقاذ سمعة الأمة العربية ومستقبلها تقتضي من الحكام أن يراجعوا مواقفهم وسياساتهم ، لأن أفضل وسيلة يتبعونها هي أن يكفّوا عن كل سياسة ويضعوا قضية فلسطين بين أيدي المقاتلين بعد أن يجهزوهم بكل ما تقتضيه حرب حديثة جدية وقاسية ...

ويقدم الفقيد تصوراً لطبيعة الحرب ونتائجها المحتملة اذا استمرت : فالعرب يعملون في هذه الحرب لأول مرة متحدين متضامنين من سائر الأقطار ، وهم يكافحون عدداً ، مهما قيل في قوة استعداده وكثرة وسائله ، أقل من أن يقاس بجزء من القوى الاستعمارية التي يكافحونها . لهذا يجب أن تتحول هذه الحرب من شكلها الدفاعي القائم الى شكلها الهجومي . فالقناعة بالتكافؤ مع العدو غير جائزة ، لأن العدو لم يكن يطمع في أكثر من الصمود لقوتنا ، ولأن مجرد التكافؤ مع هذا العدو يصيب معنوياتنا في الصميم .. وأول ما ينبغي القيام به هو جعل القوات العربية المحاربة أصدق ما يكون تعبيراً عن امكانيات الأقطار العربية ، وان تُشجع بصورة خاصة امكانيات عرب فلسطين ويستفاد منها الى أبعد حد ممكن .

ان معركة فلسطين يجب أن تصبح أصدق ما يكون تعبيراً عن روح النهضة العربية الحديثة ، وفي رأي الفقيد ان هذه المهمة تقع على جيل الشباب المثقف المؤمن لأنه وحده القادر على الارتفاع بمجهود العرب الى مستوى المهمة الشاقة التي تنتظرهم .

ان فشل العرب في حربهم الأولى مع الصهيونية جعلت الفقيد يتوقف قليلًا ليتناول هذا الجانب بالعرض والتحليل .. « لقد كانت اقامة اسرائيل في قلب الوطن كارثة هزت بعنف وعمق البنيان السياسي والاجتماعي والنفسي للعرب في آن واحد ،





وأصابت هذه الهزة قطراً عربياً كبيراً كانت السياسة الاستعمارية والسياسة الرجعية تعزلانه عن بقية الأقطار العربية (مصر) » .

ثم ينتقل الفقيد الى الناحية الموضوعية الخاصة بالحدث نفسه فيظهر ذلك التلازم بين الاستعمار والصهيونية ويعتبره السبب الرئيس في قيام الكيان الصهيوني .. واذا كان قد اعتبر الاستعمار السبب في المشكلة واسرائيل نتيجة مترتبة عليه ، فانه يضيف الى ذلك توضيحاً في غاية الأهمية يخص حقيقة هذا الكيان نفسه : فاسرائيل هي حليفة للاستعمار ولكنها ليست أداة بالمعنى العادي ، لها كيانها ، ولها خططها ، ولها مصالحها ، ولها قوتها ، وذكاؤها وسياستها ، وتعتمد على قوة ونفوذ الصهيونية العالمية .. اذن هي احياناً تورط الدول الاستعمارية واحياناً الدول الاستعمارية تدفعها .

ولم يغب عنه الدور الذي لعبته النظم العربية ولا الأوضاع العامة التي كانت تسود المجتمع العربي .. وقد حمل كلٌ منهما قسطاً مهماً من مسؤولية ما حدث .

واذا كان خلق اسرائيل قد خطط له لكي يمنع تنامي القوة العربية أو تحقيق الوحدة العربية فان هذه الخطط لم يقدر لها أن تتحقق ، فالواقع ان نكبة فلسطين وقيام الكيان الصهيوني كانا دافعاً قوياً لمضاعفة القوة العربية وتنميتها وتحفيز الأمة لرفع مستواها النضالي .

وربما يمكن أن يساق كمثل على هذا التحول ما فعلته معركة فلسطين في نفسية مصر وشعبها ، فقد كانت معركة فلسطين بالنسبة لمصر حدثاً تاريخياً في تاريخ الأمة لأنها قضت على العزلة التي عمل الأجنبي على اقامتها بين مصر والأقطار العربية .. وانقشعت الغشاوة عن شعب مصر .. واتجه في طريق صاعدة نحو البناء القومي السليم ..

ويربط الراحل بين ما احدثته القضية الفلسطينية في مصر وبين المخططات اللاحقة حيث ركز الاستعمار والصهيونية هجومهما على مصر وصنما على تحطيمها ليتحطم بذلك أمل العرب في الوحدة .

ان تعاظم التهديد الصهيوني والشروع بتحويل مياه نهر الاردن كانا من بين أبرز العوامل التي أدت الى البدء بعقد مؤتمرات القمة العربية التي طرحت خلالها فكرة الكيان الصهيوني التي وجدت صداها المباشر لدى قيادة حزب البعث فصاغتها بشكل مشروع متكامل . واعتبر الراحل هذا المشروع الذي قدمه الحزب للقوى السياسية العربية والجماهير الفلسطينية ليس من قبيل التكتيك وانما هو تعبير عن قناعة الحزب في أصح اسلوب لتنظيم الفلسطينيين من أجل معركة التحرير .

وجعلت هزيمة ١٩٦٧ الفقيد يتناول هذا الواقع المستجد بعمق ويمس



بصراحة ذات النقطة التي لم تنفك تسيطر على نتاجاته الفكرية المتعاقبة .. فنقطة البداية في تصحيح آثار المرحلة السابقة هي نفسها نقطة بداية العمل قبل ربع قرن : فالرجوع الى الينبوع الحقيقي .. الرجوع الى الشعب ومصارحته بالحقائق وتحميله مسؤولية النضال والعمل معه .. من شأنه أن يتيح له مجدداً فرصة العمل الثوري ..

كما طرح فكرة اعادة النظر في كثير من الأفكار كضرورة انبثاق العمل الفدائي ، فالعمل الشعبي المسلح ضمن اطار صيغة جبهوية قومية هو الصورة الملائمة على الصعيد الجماهيري الواسع ، وقدم أسباب دعوته للكفاح المسلح وتشكيل جبهة عربية وأهمها « أن يشفى الحزب من أمراضه كلها .. أن يتجدد كلياً .. أن يولد ولادة جديدة .. ولادة فكرية .. نضالية .. وحدد شعار المرحلة آنئذ بالوحدة والديمقراطية .. فنكسة ١٩٦٧ لا يمكن تحويلها الى نصر ما لم يتم جعلها ، أساساً ، منطلقاً للوحدة العربية .

وحين بدأت محاصرة الثورة الفلسطينية تتضح ، أخذت المطالبة بالعودة الى الشعب تتردد لتأخذ مسألة الوحدة مكانتها لتكون هي الضمانة لاستمرار المواجهة مع العدو وتصفية العدوان ومظاهره . وكان رأي الفقيد ان المعركة التي تواجهها الأمة تحتاج الى كل قدراتها وطاقاتها ، غير ان بداية مثل هذا الحشد يجب أن تتركز في اتحاد جماهير الأقطار المحيطة باسرائيل وهي مصر وسوريا والعراق .

ان اصراره على ضرورة تحقيق هدف الوحدة لايمانه بأن لا شيء يتغلب على الصهيونية والاستعمار والهزيمة الا الوحدة بمضمونها الثوري .. وهذه الوحدة لن تتحقق الا اذا كانت وحدة مقاتلة ، والا اذا كان الشعب .. مسلحاً يدافع عنها بالسلاح ، والا اذا كانت وحدة حرب التحرير .. ان طريق الوحدة يمر بفلسطين .

ولهذا رفض الراحل الحل السلمي واعتبره استسلاماً لمؤامرة ويجب أن يقاوم بكل الطرق .

وتأتي حرب تشرين ١٩٧٣ لتضيف اسهاماً فكرياً آخر للفقيد قدم فيه آراء واضحة المعالم ، « فمعركة تأميم قناة السويس شكلت أول رد قومي على هزيمة العرب عام ١٩٤٨ ، والهزيمة التي حلت عام ١٩٦٧ .. لم تولد اليأس في النفوس بل انها جددت الحيوية والايمان وصقلت الكفاءة ، بل انه يمكن القول ان حرب تشرين ١٩٧٣ هي بعض نتائجها » .

ويتناول الفقيد قرار وقف اطلاق النار والتسويات التي بدأت مظاهرها تتضح فيبدي آراء في غاية الدقة والوضوح ، فما جرى من مواقف تتصل بوقف اطلاق النار يمثل تحايلًا على النصر الذي بدأت تباشيره تلوح ، وتقلل من حجمه وشأنه ، والهدف هو محاولة وقف الاندفاعة التاريخية التي انطلقت من الجيوش والجماهير العربية .

ان ترسيخ الاعتقاد لدى الجماهير بأن قضية فلسطين هي الأساس وهي قضية



العرب الأولى لن يجعل هناك فرقاً بين ارض فلسطين وأرض أي قطر عربي آخر .. ويصبح كل تحرير لأرض عربية جزءاً من تحرير فلسطين أو مساعداً أو ممهداً لتحريرها .

وكان طرحه مبدئياً في مسألة التسويات الجزئية ، فـ « يجب أن يكون واضحاً للجميع ان اعطاء الأهمية الأولى ، الكبرى ، للقطر ، للجزء قبل الكل يؤدي الى التفريط بالقضية القومية » . وان الذي سيترتب على مثل هذه التسويات هو ان فلسطين وشعبها سيكونان الضحية لأن الجزء الذي يحاولون ارضاء الفلسطينيين به لا يمثل في حقيقته سوى جزء صغير جداً من التراب الفلسطيني ، وهذا الجزء لن يقدّر له أن يكون حراً طالما انه سيأخذ من الشعب الفلسطيني اقراراً بالتنازل عن بقية أراضيه .. ولذلك طرح ضرورة رفض المنطق الذي يقول دولة فلسطينية من ضمن التسوية ، ورفض اعادة الأراضي الفلسطينية الى الاردن ، والاستعاضة عن هذا النهج بنهج ثوري بديل أساسه تعطيل التسوية في مصر وسوريا ودفع الأقطار العربية للمساهمة في ذلك واستئناف المعركة والاعداد لها .

كان الفقيد متفائلًا بمستقبل هذه الأمة ورقيها .. ونجده يتنبأ بمستقبل اسرائيل وما ستكون عليه بشكل واضح « فاسرائيل وجدت لكنها ستزول .. ستختفي ان آجلًا أو عاجلًا .. ولن تستطيع في الأمد البعيد أن تظل في هذه المنطقة لأن هذا يخالف منطق التاريخ .

أما عن الانتفاضة ، فانه متفائل ومعتز بها .. فهي « تجعل الأمة أمام حالة نهوضية متقدمة تبشر بالانتقال الى مرحلة تاريخية جديدة تتسم بالنضج والاقدام والمبادرة ، وبعودة الجماهير العربية الى ساحة العمل القومي لصنع الأحداث واستئناف النضال ، على أن يكون واضحاً ان هذه الحالة ما كان ممكناً أن نصل اليها لولا .. النصر العراقي » .

لقد اعتبر الفقيد قضية فلسطين خلاصة القضية العربية وروح الثورة العربية وقضية الأمة المركزية .. انها نافذة هذه الأمة على العالم وعلى الانسانية ، وهي رسالة العرب الى العالم ، رسالة القيم الخالدة ، هي الانتماء العربي الانساني الحديث ، هي الحق الذي يولد القوة ، هي العروبة مختصرة مطهرة ، هي الانسانية معذبة ، معربة ، هي وحدة العرب ، وحريتهم ونهضتهم .